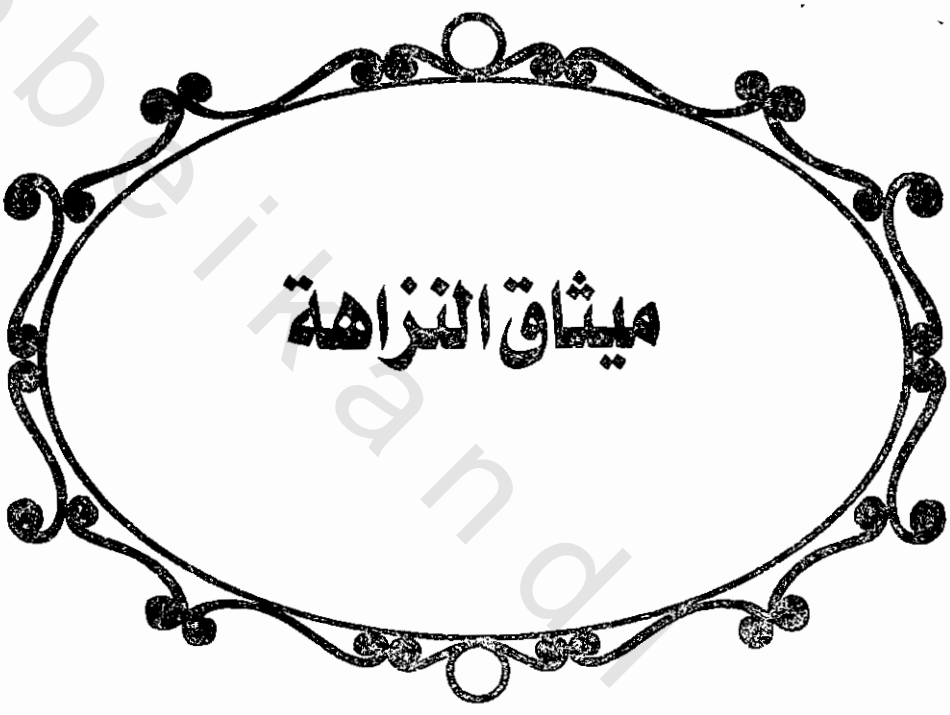

obeikandl.com

obeikandl.com

مؤتمر الأستانة

دعا المسيو دى فريسينيه الوزارة الفرنسية الدول الأوربية الكبرى إلى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية، فلبى هذه الدعوة كل من إنجلترا وألمانيا والروسيا وإيطاليا والنمسا. . أما تركيا فإنها رفضت الفكرة بحجة أن إيفاد مندوبها درويش باشا إلى مصر كاف لحل مشكلتها! وقد اعتزمت إيفادة إلى مصر فى الوقت الذى علمت فيه بإقتراح عقد المؤتمر، أى إنها عارضت المؤتمر بإرسال مندوب سام إلى مصر واتخذت من إرساله وسيلة لرفض عقد المؤتمر، واحتجت أيضا بأن الأحوال فى مصر لا تستدعى عقد مؤتمر بعد تأليف وزارة راغب باشا واضطلاعها بأعباء الحكم وأعادتها الأمن إلى نصابه، فلم يبق شىء يمكن أن يتفاوض فيه المؤتمر.

وقد أبلغ وزير خارجية تركيا سفراء الدول الأوروبية بالأستانة هذا القرار. وبقيت تركيا على امتناعها ورفضت الإشتراك فيه حتى ضرب الإسكندرية، فكان من المهازل السياسية أن يجتمع مؤتمر دولى فى الأستانة للنظر فى المسألة المصرية دون أن تشترك فيه حكومة الأستانة ذاتها، ودون أن تشترك فيه مصر، وكان واجبا على كلتيهما أن تشتركا فيه.

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية، بل أن مسلكها كله كان مجموعة متناقضات واضطرابات. . فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديو إذا بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه ويمنحه نيشانا رفيع الشأن، ثم إذا وجد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الإنجليز طعنه فى الصميم بإعلانه عصيانه.

فكان هذا الإعلان من أكبر أسباب هزيمته وخذلانه. فهذا التناقض والاضطراب. مضافا إليه قصر نظر تركيا وسوء نيتها نحو مصر. ورغبتها فى إنقاص استقلالها. ثم ما جبلت عليه من الدس والوقيعة، وتأثر وزرائها بالمال والرشا. جعل من السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق أطماعها فى مصر.

اجتمع المؤتمر بدار السفارة الإيطالية فى "ترابيا" بضواحى الأستانة على شاطئ البوسفور يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢ وكان أعضاؤه سفراء الدول العظمى الست بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وإيطاليا، والسفير البريطانى هو اللورد دفرين.

ميثاق النزاهة

ثم اجتمع للمرة الثانية يوم ٢٥ يونيه، وقبل البدء فى مداولاته إبرام العهد المشهور بميثاق النزاهة Protocole de Desinteressement، وقد وضعه المسيو دى فريسنيه فى ١٦ يونيه وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله، وهذا نصه:

"تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى".

وقد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا..

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول وفى مقدمتها إنجلترا فى مؤتمر

الأستانة. . ولكن إنجلترا حين أبرمته كانت تنوى نقضه، كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية. والدليل القاطع على ذلك أنها فى الوقت الذى أبرمته - ٢٥ يونيه سنة ١٨٨٢ - كانت تعد معدات الحرب والقتال وتجهز جيشها لإحتلال مصر. ولم يمض على هذا العهد ستة عشر يوما حتى ضرب أسطولها مدينة الإسكندرية بمدافعة يوم ١١ يوليه.

واجتمع المؤتمر فى جلسته الثالثة يوم ٢٧ يونيه، وأخذ أعضاءه يتداولون فى المسألة المصرية، وأخذ اللورد دفرين يلقى بيانه عن الحالة فى مصر، ذهب فيه إلى أن الفوضى قد تمكنت من مصر من جراء ثورة الجيش وانتقاضه على الخديو، وأن هذه الفوضى قد أدت إلى احتلال الإدراة وارتباط الأحوال ووقوف حركة التجارة وفقدان الثقة وعجز الأهلين عن سدد الضرائب وعجز الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية حيال الدائنين الأجانب، ثم تعريض حياة الأوروبيين للخطر.

ويؤخذ من بيان اللورد دفرين أن إنجلترا كانت تقصد من الاشتراك فى المؤتمر إعلان أن الحالة فى مصر تستدعى التدخل فى شؤونها، وأن هذا التدخل يجب أن يكون حربيا لقمع الثورة وإعادة سلطة الخديو. وكانت ترمى إلى أن يكون هذا التدخل إنجليزيا. . ولكنها تظاهرت على لسان اللورد دفرين بأنها تبغى أن يكون تركيا، وهى عالمة بأن الحكومة التركية بلغت من الضعف والتردد بحيث لا تقد على هذه المهمة. ولو أنها تدخلت بجيشها لكان من المحتمل أن يكون ذلك انقاذا للموقف وتفاديا من الاحتلال، لأن الدول الأوربية ما كانت لتقبل بقاء جيش عثمانى فى مصر إلى ما شاء الله. وفى الحق أن الحالة لم تكن تستدعى إرسال جيش عثمانى أو غير عثمانى، فان

وزارة راغب باشا كانت تستطيع إعـادة الأمن والنظام إلى نصابه لو لم تبادرها السياسة الإنجليزية بالعقبات والعراقيل.

كانت إنجلترا واثقـة من جمود السياسة الـتركية وضعفـها، مطمئنة إلى انقسـام الدول الأوربيـة فى الرأى وعـدم اتخاذها قـرارا مـعينا فى المسـألة المصرية.. فانتهزت هذه الفرصة وأخذت قبل انعقاد المؤتمر وخلال انعقاده تعد معدات الحـرب والقتال لتنتـهك بأسطولها وجيشـها حرمة العـهود والمواثيق، وتحتل مصر تحت سمع المؤتمر وبصره.

وقد بدت منها نية الخداع جلية فى مفاوضاتها بالمؤتمر، فقد اقترح السفير الإيطالى على الأعـضاء بجلسـة ٢٧ يونيه المؤتمر منعـقدا، ولو كانـت إنجلترا حسنة النية لوافق مندوبهاعلى هذا القرار، ولكن الواقع كما أسلفنا أنها كانت تجهز معدات الحرب لاحتلال مصر، فأخذ اللورد دفرين يلح فى ضروره وضع تحفظ لهذا القرار حـتى قرار المؤتمر أضافته هو "فيما عـدا الأحوال القهرية"، فنم بذلك على ما كانت تضـمره إنجلترا من مخادعة المؤتمر، وما كـانت تبيته من نية الشر والعـدوان، ونقض العهد والميثاق، وقـد اطمأنت بعد وضع هذا التحفظ، وتـركت المؤتمر يجتمع ويقرر مـا يشاء، إذ كانت هذه الكلمة كـافية لتجعل قراراته عديمة القيمة.

ومن الغريب أن المركيـز دى نواى سفير فرنسـا قد أيد اللورد دفرين فى اقتراحه إضافة هذه الحاشية، فدل بذلك على مبلغ تخبط السياسة الفرنسية فى ذلك الحين. وقد اغتبط اللورد دفرين لهذه الإضافة وأرسل فى اليوم التالى إن تم تعديل اقتـراح السفير الإيطالى هذا التـعديل لم نعد نعتـبر للاقتراح قـيمة كبيرة"

قرر المؤتمر فى جلسته الثالثة وجوب التدخل فى مصر لإخماد الثورة، وأن يعهد إلى تركيا بهذه المهمة بأن ترسل إلى مصر قوة كافية من الجند لإعادة الأمن والنظام إليها! وأخذ يتداول فى الجلسات التالية فى شروط هذا التدخل وحدوده، واستفادت إنجلترا من هذا البطء لإتمام تدابيرها وإنفاذ خطتها فى تدخلها المنفرد، ووضع المؤتمر فى جلسته السابعة - يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ - قواعد هذا التدخل وهى: أن يحترم الجيش الذى ترسله تركيا مركز مصر وامتيازاتها التى نالتها بموجب الفرمانات والمعاهدات، وأن يخمد الثورة العسكرية ويعيد إلى الخديو سلطته، ثم يشرع فى إصلاح النظم العسكرية فى مصر، وأن تكون مدة إقامته فى مصر ثلاثة أشهر إلا إذا طلب الخديو مدها إلى المدة التى تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الأوربية العظمى، ويعين قواد الجيش بالتفاق مع الخديو، وتكون نفقاته على حساب مصر ويعين مقدارها بالاتفاق مع مصر وتركيا والدول الست العظمى الأوربية.

وقد صدر هذا القرار على أن يعرض على الحكومة التركية والحكومات الأوربية التست التى لها ممثلون فى المؤتمر، وأرسل نصل القرار إلى هذه الدول فأقرته، ووافقت على تقديمه إلى الحكومة التركية. فأرسل إليها ولكنها لم تقره، ووقفت موقف الأحكام والتردد، شأن السياسة التركية فى ذلك العهد. واعتمدت فى رفضها التدخل على تقارير دوريش باشا الذى يقول فيها أنه ليس فى مصر ما يوجب تدخلها وقد وافقت إنجلترا على دعوة تركيا إلى التدخل فى هذا الوقت الذى كانت تعد فيه معدات القتال لتتدخل هى بمفردها، ذلك لأنها كانت مطمئنة إلى بطء السياسة التركية وترددها، وإنها تستطيع خلق (الحالة القهرية) التى نوه إليها اللورد دفرين، فتتذرع بها إلى

التدخل الحربى خطتها، إذ ضرب الأسطول الإنجليزى مدينة الإسكندرية يوم ١١ يوليه قبل أن تتقدم الدول إلى تركيا بقرار المؤتمر وقبل أن يتبين موقف تركيا حيال هذا القرار.

أما التدخل فى ذاته فلم يكن ثمة موجب له لأن الحالة فى مصر كانت طبيعته بعد تأليف وزارة راغب باشا.. ومن الوقائع القابتة أن إنجلترا أخذت تجهز معدات القتال قبل انعقاد المؤتمر، فقد أصدرت وزارة البحرية الإنجليزية فى ١٥ يونيه تعليماتها إلى بواخر النقل بالاستعداد للسفر إلى مصر مقلة كتائب الجنود فى ذلك الحين لإرسالها إلى الديار المصرية.

وقد كانت آخر جلسة عقدها المؤتمر قبل ضرب الإسكندرية - وهى الجلسة السابعة - يوم ٦ يوليه، فلما وقع الضرب ظهر أن المؤتمر لم يكن إلا مهزلة اتخذتها إنجلترا وسيلة لشغل الناس عما تضمره من نياتها العدائية، واجتمع المؤتمر مع ذلك بعد الضرب يوم ١٥ يوليه، وأخذ يستأنف النظر فى تدخل تركيا الحربى؟

عرابى والمؤتمر

استمر المؤتمر كما اسلفنا يعقد جلساته على غير طائل، وإنجلترا تعد المعدات للقتال.. وقد كان انعقاده مدعاة إلى اعتقاد عرابى وصحبه أن المسألة المصرية ستحل بطريق المفاوضات بين الدول، وأن انعقاد المؤتمر مانع من انفراد إنجلترا أو غيرها من الدول من التدخل الحربى فى مصر. وكان هذا إغراقا منهم فى حسن الظن أو الجهل بما تنويه إنجلترا..

وفى الحق أن العرابيين كان ينقصهم الحصافة فى الرأى وبعد النظر السياسى، وأغلب الظن أنهم كانوا لا يعرفون الموقف السياسى على حقيقته،

وكـانوا يعتـمدون على مـا يتلقـونه من بعض الأفراد الأوربيـين من الأوهام والأخبار الملفقة. ولم يكن لديهم قلم أخـبار فى مصر ولا فى الخارج يطلعهم على حقيقة الأحوال السياسية وتطوراتها.

هذا فضلا عما اشتهـروا به من الغرور والخيلاء، إذ كانوا يتوهمون إنهم قادرون على دفع اعـتداء الإنجليز أو أية دولة أخـرى دون أى استعـداد جدى للحرب. ولم يكونوا يقدورن قـوة أعدائهم، ولا قوتهم هم أنفسهم، فـبينما كان الإنجليز يستعدون للحرب والقـتال ويحشدون جنودهم فى إنجلترا ومالطة والهند ويستطلعون قوة العرابيين ويقفون على حـقيقة معداتهم، كان العرابيون لا يعرفون شـيئا عن معـدات الإنجليز.. بل كانوا يتوهمـون أنهم لا يجرؤون على إعلان الحرب والقتال أو النزول إلى البر. وكذلك كان شأن وزارة راغب باشا عامة فإنها كانت لا تزيد كثيـرا عن مستوى العرابيين فى العلم والمعرفة، وكان عرابى هو الآمر المتسلط عليها إذ كان وزير الحربية فيها.

ومما سـاعد العـرابيـين على التـمادى فى غـرورهم رؤيتـهم الأسطول الإنجليزى راسيا فى مياه الاسكندرية دون أن تنشب الحرب أو يتحفز للضرب، فخيل الوهـم لهم أن مجيئه لم يكـن إلا من قبيل التهديـد والوعيد، وأنه لا يجرؤ على إنزال الجنود إلى البر، واتخذوا من موقف السكوت الذى لزمه يوم مذبحة الاسكندرية دليلا على أنه لا قبل له بالحرب والقتال..

ولكن الواقع أن الإنجليز كـانوا ينتظرون أن يهيئوا الجـو فى أوربا لقبول تدخلهم الحربى.. فـدبروا مذبحة الاسكندرية حـتى يظهروا الحالة فى مـصر بأنها حالة فوضى واضطراب ونهب وقتل لا يؤمن مـعها على حياة الأجانب، وإنها تستدعى تدخل الدول لوضع حد لهذه الفوضى، ثم اشتركوا والدول فى

عقد مـؤتمر الأستانة للمفاوضـة فى إيجاد علاج لهذه الحـالة الخطيرة، وهيأوا الأفكار فى أوربا لضرورة التدخل لقمع الثورة فى مصر..

فلم يكن انتـظارهم هذه المدة - ولم تكن فى ذتهـا طـويلة إلا لأحكام خطتهم وإتمام تجهيزاتهم الحربية، ثم لتمكين الجاليات الأوربية من الهجرة قبل أن تضـرب إنجلترا ضـربتهـا فى مصـر، لكى يكون عدوانهـا مقـرونا بعطف الأوربيـين المهاجـرين.. وتكون فى احتـلالها كـأنها نائبـة عنهم وعن الدول الأوربية جميعا. كل ذلك والعرابيون غارقون فى أحلامهم معتقدون أن الحرب بعيدة الوقوع، ولذلك لم يبد منهم أى عمل يدل على الاستعداد لخوض غمار القتال.

وكانت أحاديث العرابيين دائرة حول ما يتسقطونه من أخبار المؤتمر، وما تلوكه ألسنتهم من أن الأزمـة ستحل قريبا بطريق السلم، وإنهـا ستنتهى بخلع الخديو توفيق وتعيين الأمير حليم باشا مكانه.. وهذا كل ما كان يشغل بالهم ويستـحوذ على أفكارهم فى ذلك الوقـت العصب، أما الاسـتعـداد للحرب والتهـيؤ للقتـال فلم يفكروا فيه تفكيـرا جديا إلا فى اللحظة الأخيـرة بعد أن ضاع الوقت وسبق السيف العذل.

* * *